

مع القرآن

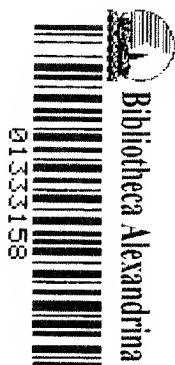
قصة

زيد بن جحش

زوجتنا النبي صلى الله عليه وسلم

الدكتور محمد بن شريف

الناشر: مكتبة وهبة
٤ شارع احمد ريت - عمارين
الطبعة - ٩٣٢٧٧٠٠



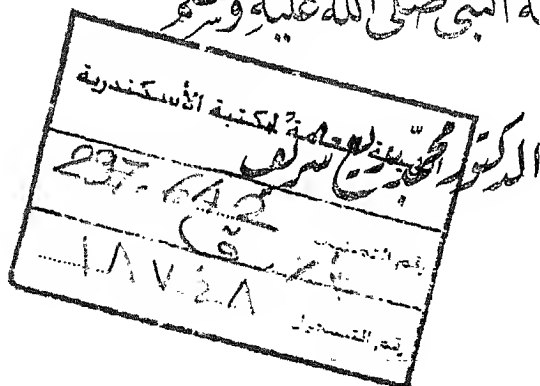
١٩١٩

مع القرآن

قصة

زَيْنَبُ الْحَكِيمِ

زَوْجَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الناشر: مكتبة وهب

في شارع الجمهورية - بعباس

القاهرة - ت ٩٣٧٤٧٠١

الطبعة الأولى

رجب سنة ١٤٠١ هـ - مايو سنة ١٩٨١ م

جميع الحقوق محفوظة

DATE OF FIRST PUBLICATION: 1981 - 1401 H. - 1401 H. - 1401 H.

دار النضال للطباعة
٢٢ شارع سامي - ميدان لافونغلي
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦

إهداء

الى الشباب المسلم ..

الى كل من يضيء قلبه نور الايمان ..

الى كل عربى ينبض فى عرقه دم العروبة ..

✳ أيتها الشباب المسلم ان فى قرآنكم ثروة فى الاعتصام بين العبد وربّه وثروة فى التنظيم الاجتماعى بمادته وروحينه ، فيه عدل ، ومساواة وإخاء ، فيه تفكير يصل بكم الى الابداع والابداع لتكوين المجتمع الأفضل .

✳ لقد مضت على نزول آياته السنون فى أكثر من أربعة عشر قرنا ، وتداول هذه الآيات المفسرون ، فمنهم من أصاب ، ومنهم من أخطأ ، أما الخاطئون فقد تحداهم الجهل فمالوا الى الروايات الاسرائيلية المدسوسة فقمروا بعض التفاسير بضباب اسرائيلى ضعيف ، مهلهل تموج فيه الخرافة .

وأحسرتاه !! لقد أصبحت هذه الخرافات من الحقائق
الثابتة في أذهان الكثيرين ، فاتخذوا منها مادة للوعظ ،
والارشاد ، وهم يجهلون أنها من المفتريات ، التي تترك
الواعين خيارى بين الكذب والتصديق •

لقد اعتبرت تفسير هذه الآية الكريمة غمامة سوداء
نسجتها الاسرائيليات فلما تحداها الدرس والتحقيق ••
تھاوت تتوارى وراء أفق الجهل والمكر ، فظهرت الآية
وضاحة الجبين ، وفق تلاوة القرآن ، ووفق الأسلوب
العربى المبين ، ووفق التشريع الاسلامى الحنيف •

محمد بديع شريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالا مبينا . »

واذ تقول للأذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أهملك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا .

ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . » .
(الأحزاب : ٣٦ - ٣٨)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

اتساع رقعة الاسلام ورسالة الخليفة عثمان بن عفان

رضى الله عنه ٠٠ للأهمصار ٠٠٠

أوغلت جيوش الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فى الشرق من ثغور العراق ، ففقت على دولة الأكاسرة ، وفتحت بلاد أرمينية وغزت أساطيله : قبرص ورودى ففتحهما ، وتحطمت أساطيل الروم فى واقعة الصوارى أمام أساطيل المسلمين ، وطفقت تمخر عباب البحر حتى وقفت على أبواب القسطنطينية . ومشت جنوده فى شمال افريقيا بالفتح المبين وشرعت تحاول العبور الى الأندلس فى ذلك الحين ، ودخل الناس فى دين الله من كل حدب وصوب ، وكثير منهم فىهم العجمة أى لا يفقهون العربية ، وكانت اليهودية والمجوسية تتميزان من الغيظ لهذه الاشراف الجديدة

المضيئة التي أبانت سبيل الرشاد للإنسانية ، فرفعت معالم العدل والاخاء والمساواة ، وفي غمرة هذا الانتصار العسكري والاجتماعي عال عثمان - رضى الله عنه - خبر له ما بعده ، ذلكم هو : أن المسلمين في الثغور والأمصار أخذوا يختلفون في قراءة القرآن ، ويشتد الخصام فيما فيه يختلفون ، وصار أحدهم يفضل قراءته على الآخر ، وكان حذيفة بن اليمان جاء اليه وقال له : أدرك أمة محمد قبل أن تتفرق حول القرآن ، فأقدم - رضى الله عنه - على توحيد المصحف وأرسله الى الأمصار ثابتا كما حفظه الصحابة عن رسول الله ، وها هو ذا بين أيدينا اليوم ، معجزة البيان ورمز عبقرية اللغة العربية ، وعنوان حضارة خلافة مبدعة ، ما وضعت الا لترفع الانسانية الى مكانتها الرفيعة في الوجود .

أدرك الخليفة مصير المسلمين في هذا الخضم من العجمة في الثغور والأمصار ، فوجه كتابه المشهور الى عامة المسلمين :
منذرا ومحذرا من هذا الخطر .

جاء في كتابه - رضى الله تعالى عنه :
.. أما بعد ، فانكم بلغت بالافتداء والاتباع ، فلا تافتنكم الدنيا عن أمركم وان أمر هذه الأمة صائري الى الابتداع بعد

اجتماع ثلاث فيكم ، تكامل النعم ، وبلوغ اولادكم من السبايا ،
وغرارة الأعراب والأعاجم القرآن • فان رسول الله قال : « انكفر
في العجمة » فاذا استعجم عليهم أمر تكفروا وابتدعوا ...

في هذا الكتاب يظهر بعد نظر الخيفة وقرة تفهمه للمجتمع
الاسلامى الجديد الذى هو صائر لا محالة الى طريق غير
طريق المؤمنين الصادقين فى ايمانهم ، وان هذا التحول سوف
ينحدر الى المجتمع الاسلامى من شعور ثلاثة : من سعة العيش ،
ومن نبت ناشئة هجينة منحدره من السرايا والاماء ، وأخطر
الثلاثة العجمة التى يراد بها صعوبة تفهم الناس أحكام القرآن
وأسباب نزول آياته ، لبعدهم عن أسرار العربية وأساليب
البيان • ومن لم يفهم تكلف الشرح والتفسير، فابتدع واخترع،
وقال بما لم يعلم ، وفى هذه الظاعرة ما فيها من الخطورة ، وهذا
هو مكن الخطر الذى كان الخيفة يخشاه ، فقد أبطرت الناس
النعمة ، وغيرتهم العجمة ، وتكلفوا فى التفسير والتأويل
وتململت اليهودية فأخذت تفتشر الاسرائيليات ، وشرعت
المجوسية تدس مبادئ الوثنية ، ونشأت الغوغائية فى كثير
من الأمصار ، وكان عبد الله بن سبأ اليهودى رأس هذه
الغوغائية ، وهو مؤسس الحركة السبائية التى كانت الشجر

الخبیثة التي نفرعت عنها الماسونية ، والصهيونية •
 « المؤسستان اللتان تعبثان بمصائر الأمم » •

ولقد أخذت الاسرائيليات تتسرب الى تفسير الآيات وتوضيحها في أول عهد الصحابة ، وكانت في نطاق محدود ، ثم استشرى الاعتماد عليها فيما بعد ذلك في العهدين : الأموي والعباسي • حيث أخذ وضاع الحديث يدسون ويدأسون انتصارا لمبدأ أو توضيحا لفكرة ، وخاص في هذه الأمواج المتلاطمة انقصاصون الذين ينثرون الطرائف والنكات • والخرافات في وعظهم بغية اجتذاب العامة الى حلقاتهم ، ولعب الاخباريون لعبتهم في ترويج الخرافات والأباطيل ، وأصبحت أكثر القصص المكذوبة تكاد تكون حقيقة واقعة ، فاذا استعصى على المفسرين شيء من البيان استعان بالاسرائيلية المنقولة عن التلمود ، والتوراة ، مبررا عمله بما جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » • ومن كذب على متعمدا فيلتبوا مقعده من النار » (١) • ويقولونه : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبهم ، وقولوا :
 « آمنا بالله وما أنزل اليانا » (٢) ٠٠ الآية •

(١) البخارى فتح البارى ج ٦ ص ٣٢٠ (٢) البقرة : ١٣٦

ومن ذا الذى يضمن صدق اليهود ، ويأمن مكرهم ، وهم
أشد الناس عداوة للذين آمنوا .

لقد تكاثر الاخباريون والرواة ، وترجمت الكتب عن
الآرامية والفارسية والهندية والاعريقية والرومانية ، وأخذ
المتكسبون والراكضون وراء لقمة العيش والثراء يتسابقون
فى نقل الاخبار واذاعتها بين الناس ، وأخذت الألسن
تتناقلها : الصادق ينقلها عن المكاذب ، والكاتب المدون
يأخذها عن المدلس ، وشغف الناس بالاسرائيليات ،
وترددوا فى أخذها بين النهيين : « لا تصدقوا أهل الكتاب
ولا تكذبوهم » بيد أن الاسرائيليات والخرافات وطرائف
الأمم ومأثورها فى العادات والتقاليد ملأت صحف الكتب
والمدونين المتلهفين للأخبار حيثما جاءت . وشاع حذف
الأسانيد ، وانحسر التحقيق ، واعتمد المفسرون كثيرا
على الاخباريين ، وحملة الرواية .

لقد ضعفت المعرفة باللغة ضعفا شديدا ، وجهل الكثيرون
أساليبها الدقيقة ، واضطر العرب فى عهد الراشدى الى وضع
قواعد النحو والاعراب كي يتفهم الاعاجم وأبناء المصارى

أسرار اللغة ، وازدادت الحاجة الى النحو ازديادا مذهسا
فوضعت أسسه وقواعده في المربد ومسجدى البصرة والكوفة .

ومع ذلك نقد ظل الجهل باللغة ناشيا بين الناس مع
علمنا أن المربد ومسجدى البصرة والكوفة خرجوا الكتاب
والشعراء والبلغاء وعلماء النحو والفقه والحديث والتفسير ،
غير أن الروايات المضللة المنتشرة ، ضللت الناس ، وسهت
لهم الأخذ بها دون الرجوع الى الأصول والتدبر ، فربكت
العلماء ، وشرع النقل يأخذ بعضه برقاب بعض دون تحقيق .



ومن الروايات التى أربكت المفسرين فى تفسير الآيات
موضوع بحثنا هذا ما نقله ابن جرير الطبرى ، غفر الله له
جريرته .

من هو ابن جرير ؟ :

ابن جرير ، عالم من علماء المسلمين ، مؤرخ ومفسر ،
وينتهى وضع تاريخه والفراغ من تفسيره بانتهاء حياته ،
بانتهاء القرن الثالث الهجرى ، وبضع سنوات من مفتتح القرن
الرابع الهجرى فبيننا معه أكثر من ألف عام ، شهد عصر

المأمون وحضر خلافة المعتصم والواثق ، وشهد فتنة خلق القرآن في ذروتها وهي فتنة عانى من جرائها العلماء الاضطهاد ، انها تذكرنا بذلك التحذير الذي نشره الخليفة ، حيث خشي مما سينجم عن قراءة الأعاجم والأعراب القرآن فيتكلفون ، ويبتدعون ، ومن حسن الحظ أن المتوكل الذي جاء بعد الواثق أغلق باب الفتنة بمصراعيه في هذا الموضوع الذي تجنبته ، وأشرت اليه عرضا ، لأنه ليس من موضوع البحث ، وانما ذكرته لأن ابن جرير كان شاهد هذه الفترة ، وكان يجمع أخباره ويدونها في زمن ضعف فيه الاسناد وكثر الوضاع ، اما تدليسا أو حبا للشهرة ، أو تكسبا للثمة العيش ، وكان ابن جرير يستند في تفسيره القرآن الكريم على مثل هذه الروايات ، وكان قد أدركبيعة الخليفة عبد الله بن المعتز : صديقه الحميم ، والخليفة الفقيه الشاعر الذي ما ارتضته الغوغائية فذهب ضحية القيادات المتخاصمة من العناصر المتباينة في أيامه ، وعند مبايعته لم يخرج الطبرى لبيعته اما لكبر سنه ، واما لخوفه ، وقد اغتيل ابن المعتز عام ٢٩٦ هـ في فتنة عمياء وتوفى الطبرى بعده عام ٣١٠ هـ وقد قيل عن الطبرى رحمه الله انه لا يعتد بالاسناد وذكر الرواة ، وانما ينقل الرواية احيانا دون تسلسل روايتها *



من هو زيد بن حارثة ؟ • • ومن هي زينب بنت جحش ؟ .
 أما زيد فهو مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 كان في سنن الجاهلية اشتراه الرسول وأعتقه ، وتبناه ،
 فكان يقال : زيد بن محمد • وكانت عرب الجاهلية تعتقد أنه
 يحرم على الولد المتبنى ما يحرم على الولد من النسب ، ويعطى
 للمتبنى ما يعطى للمولود من النسب في الارث ، فنزلت الآية
 التشريعية : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم
 بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهdy السبيل • ادعوهم
 لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم
 في الدين ومواليكم » (١) •

وأما زينب بنت جحش ، فهي حفيدة عبد المطلب بن
 هاشم ، وابنة أميمة عمة النبي - صلى الله عليه وسلم -
 فهي في الذروة من النسب في قريش مثلها مثل العقائل
 العربيات اللواتي يتفاخرن بالحسب والنسب ويتكاثرن
 بالمال والنسب ، ولهن الحرية في اختيار الأزواج ، ولايزوجهن
 أولياؤهن الا برضاثن وأخذ رأيهن في الزوج الكفو الحر الذي
 يفتقد مقعد الرجال •

(١) الأحزاب : ٤ ، ٥

وقد وردت الروايات المتهاففة بشأن زواجها من زيد ، ففى
احدى الروايات الآتية : أن رسول الله قال لها : « انى أريد
أن أزورك زيد بن حارثة فانى قد رضيته لك » - وكان النبى
قد اعتقه وتبناه ليرفع مكانته الاجتماعية - فردت زينب
على ولى أمرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالت :
« ولكنى لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قرمى (١) وبنت
عمتك ، فأم أكن لأفعل » .. ومعنى ذلك أن زينب لم تجد
فى زيد الرجل الكفو ، فهى خفيفة عبد المطلب بن هاشم سيد
قريش ، رأت فى نفسها ترفعا ، حين أدركت أن مكانة زيد
فى مجتمع قريش مكانة المولى ، ورجعت الى نفسها تتمنى
وتحلم بما تحلم به عقائل قومها فى الزواج من صناديد العرب ..
ولكنها لم تجد بدا من الازعان لولى أمرها حين قال لها : « قد
رضيته لك زوجا » فأجابت : « وقد رضيته زوجا يارسول
الله » .. قبول على مضض - كما يقول الرواة - ، لان بيت
الزوجية رغم الاسلام والايمان بقى ينوء بالاختلاف مدة ثلاث
عشرة سنة ، حتى فصل القرآن الكريم بينهما ، وفى هذا الفصل
أحاطت بالزواج والطلاق الروايات التى جانبت اللياقة فزاد

(١) الأيم : العزب ، ذكرا كان أو أنثى :

ففيها المحدثون والاختباريون ، ونقصوا • وابتدع المفسرون
وتكلفوا ، واتهم المغرضون ، ودافع المخلصون ، وفي التفسير
والدفاع والاثهام ، أخطاء ستتكشف لنا بعد بحث ، وتدقيق
سليمين ، وارجاع الآراء الى مظانها الخاطئة والصائبة
ومكانة الآيات الكريمة من التنزيل ، وتفسيرها تفسيراً
صحيحاً وفق أسلوب القرآن الكريم ، ووفق أساليب اللغة
العربية الجارية مجراه •• والله ولي التوفيق •



الفصل الأول

عرض وتدقيق للروايات التي وردت في أسباب نزول آية : « وما كان المؤمن ولا مؤمنة » ٠٠ الآية ٠٠ ورأى المفسرين وبيان الحكم الصحيح بشأنها

الرواية الأولى :

أخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت : « قلت يا رسول الله ، فمالنا لا نذكر في القرآن كما ذكر الرجال ؟ ٠٠ فلم يرعنى منه ذات يوم الا نداء على المنبر وهو يقول : « ان المسلمين والمسلمات » (١) ٠ الآية ٠٠

الرواية الثانية :

أخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه ، والطبراني عن أم عمارة الأنصارية ، أنها اتت فقالت ، ما أرى كل شيء الا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن شيء ٠٠ فنزلت الآية ٠٠

الرواية الثالثة :

عن ابن عباس قال : « قالت النساء : يا رسول الله نأ ما ياله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ » فنزلت الآية ٠٠

(١) الأحزاب : ٣٥

لا

(لا = قصة زينب بنت جحش)

الرواية الرابعة :

عن ابن عباس ، أن رسول الله انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ، فخطبها ، قالت : لست بناكحته ، قال : بل أنكحيه ، قالت : يارسول الله ٠٠ أوأمر نفسي ، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ، قالت : قد رضيته لى يارسول الله منكحا ؟ ٠٠ قال : « نعم » قالت : اخن لا أعصى الله ورسول الله ، قد أنكحته نفسي • أخرجه ابن جرير وابن مردويه •

الرواية الخامسة :

عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله لزينب : « انى أريد أن أزوجك زيد بن حارثة ، فانى قد رضيته لك » ٠٠ قالت : يارسول الله ٠٠ ولكنى لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قومى وبنت عمك ، فلم أكن لأفعل ، فنزلت هذه الآية : « وما كان لمؤمن (يعنى زيدا) ، ولا مؤمنة (يعنى زينب) اذا قضى الله ورسوله أمرا (يعنى النكاح فى هذا الموضع) ، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (أى ليس لهم الاختيار من أمرهم خلاف ما أمر الله به) قالت : قد أطعك فاصنع ما شئت ٠٠ فزوجها زيدا ودخل عليها ، أخرجه ابن مردويه (فتأمل) •

الرواية السادسة :

عن زيد قال : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت ، فوهبت نفسها للنبي ، فتزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالوا : انما أردنا رسول الله ، فزوجها عبده ، وكان زيد تزوج بزَيْنَب قبل الهجرة بثمان سنوات ، وبعد أن طلق زيد زَيْنَب زوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكان زوجها قبلها أم أيمن التي ولدت له أسامة ، وكانت ولادته بعد البعثة بثلاث سنين وقيل بخمس سنين وأم أيمن هذه : بركة الحبشية ، بنت ثعلبة ، اعتقها عبد الله - أبو النبي - وقيل بل اعتقها هو ، وقيل كانت لأمه ، أسلمت قديما وهاجرت الهجرتين وماتت بعد النبي بخمسة أشهر وقيل بستة .

الرواية السابعة :

ينقل هذه الرواية المفسر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ دون اسناد ومسلسل ، ويقول : خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زَيْنَب بنت جحش ابنة عمته أُمَيمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة ، فأبى وأبى أخوها عبد الله ، فنزلت الآية ، فيقال : قد رضيينا يا رسول الله فأنكحها إياه ،

وساق إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعاً وازارا ،
وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر . قال الزمخشري:

« وقيل هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وعي أول
من هاجر من النساء وهبت نفسها الى رسول الله ، فقال : قد
قبلت ، وزوجها زيدا فسخطت هي وأخوها ، وقالوا : انما أردنا
رسول الله » .

ومضى الزمخشري في تفسير الآية على أساس هاتيز
الروايتين اللتين أوردعهما دون سند مع ترده بين أن تكون
الآية نزلت بشأن زينب التي عدد مهرها أو بشأن أم كلثوم ،
حيث وضع النبي في موقف خاب فيه أمل أم كلثوم وأخيها
فسخطا ، ورأيا في تصرفه ما يجرح كرامتهما ، حين زوجها
لمولاه ، مع أنها ما وهبت نفسها الا رغبة في زواجها من النبي -
صلى الله عليه وسلم - .

قال الزمخشري : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » والمعنى
ما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين « اذا قضى الله ورسوله » ،
أي رسول الله ، لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله « أمرا » من
الأمر - أن يختاروا من أمرهم شيئا ، بل من خفهم أن يجعلوا

، نعم تبعاً لرأيه ، واختيارهم تلو اختياره (فان قلت) كان
حق الضمير أن يوحد كما تقول ما جاء من رجل ولا امرأة
: ما كان من شأنه كذا (قلت نعم) ولكنهما وقعا تحت النفي
سما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ ،
وقرىء تكون بالتاء والياء « الخيرة » ما يتخير للذى أنعم الله
عليه بالاسلام الذى هو أجل النعم ، وبتوفيقك لعنته ومحبتة
واختصاصه وأنعمت عليه بما وفقك الله فيه ، فهو منقلب فى
نعمة الله ، انتهى الزمخشري فى روايته وفى تفسيره الآية « وما
كان لمؤمن ولا مؤمنة » •• الآية ••



التحقيق في الروايات وتوجيه الآية وجهتها الصحيحة

أمعن النظر في الروایتین ، الأولى ، والثانية ، تجد في الأولى عتاباً لأم سلمة موجهاً الى النبي في عدم ذكر النساء في القرآن كذكره الرجال ، وفي الرواية الثانية تجد احتجاجاً من أم عمارة حين قالت لرسول الله : كل شيء للرجال والنساء لا يذكرن بشيء . وفي الرواية الثالثة احتجاج من جماعة من النساء فيه جفاء ، حين قلن : ما باله ؟ ولم يعلم من هو المراد ؟ أهو الله عز وجل المطلوب في ذلك ، أم القرآن كلام الله ؟ .

وفي هذه الروايات الثلاثة ادعاء بأن الآية نزلت لهذه الأسباب :

واذا رجعنا للقرآن الكريم ، وجدنا ذكر المؤمنات قبل نزول هذه الآيات وبعدها بما يزيد على عشرين موضعاً زيدا على ذكر أوصاف المؤمنات بالالفاظ الطيبة كمثل المحصنات ، القانتات . . الخ . وما جاء في حقهن من الأحكام وأكثره متصل

بنون النسوة خاصة في رفع شأن المرأة ، ومن هنا تستطيع أن تحكم على ابتداء هذه الروايات المتكلفة بشأن نزول الآية ، ومن ثم لا تتردد عن الحكم بسقوطها .

وفي الروایتين : الرابعة والخامسة ، أظهرت زينب معارضة سديدة ومانعت في زواجها من زيد ، فنزلت الآية ونزل فيها جزاء المخالف لأوامر الله ورسوله ، فرضيت على مضض ، وقد نزلت الآية أثناء الحوار ، وبعبارة أخرى طلبت من رسول الله أن ترجع الى نفسها قبل نزول الآية ، فلما نزلت لم تر بدا من الطاعة لأمر الله ، وقالت : مادمت قد رضيت له لى يارسول الله ، فقد رضيت له .

أما الرواية السادسة : فقد أوردها ابن زيد بشأن أم كلثوم بنت عقبة وقال : نزلت بحقها ، وان كان ابن عباس زاد في هذه الرواية مفسرا « وما كان مؤمن » يعنى زيدا « ولا مؤمنة » يعنى زينب ، وقد حمل الآية مالا تحتمل لكى يجعل سبب نزولها ما جاء في الرواية .

وعلى وجه التقريب يروى الزمخشري بعد مرور خمسة وعشرين عاما روايتين في أسباب نزول الآية رواية يجعلها

بشأن أم كلثوم ، وأحرى بشأن زينب ، في وقت أنبهم على
المفسرين أسلوب القرآن الكريم، وعذب الرضع في الخبر والرواية
وران على الناس فساد الذمم ، وأصبح المفسر الذي يريد
أن يفسر آية يجنح إلى قواعد النحو للعجمة الفاسية ، فتفوت
المعاني ، فيقع بما لا يمتنع مع النص القرآن ، فيضع ويسند
إلى خرافة اسرائيلية ، وقد جنح الزمخشري إلى هذا المنحرف
عندما وصل إلى تفسير قوله تعالى : « أن يكون لهم الخيرة
من أمرهم » فقال : من حق الضمير أن يوحد هنا إذا كان
المطلوب من الآية [زيذا أو زينب] ، وسأل نفسه كما هي
عادته في التفسير (فان قلت) كان من حق الضمير أن يوحد
كما تقول : ما جاء من رجل ولا امرأة الا ما كان من شأنه كذا
(قلت نعم) ولكنهما (مؤمن ومؤمنة) وقعا تحت التقى فعما
كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ ،
وما كان أغناه رحمه الله عن الاعراب لو أدرك بلاغة القرن
وأدرك الغرض من الآية : وهي قاعدة عامة تنفيذية كما يجيء
تفسيرها ، وكما أوضح هو نفسه فان عموم النفي يقع على
كل مؤمن ومؤمنة .

أعد النظر في هذه الروايات مرتين أو ثلاثا ، تجد أنها
متهافنة لا شأن لها بآية « واذا تقول للذي أنعم الله عليه » . الخ

ولو رجعنا الى تقاليد العرب وعاداتهم فى زواج فتياتهم لوجدنا أن الفتاة لها مطلق الحرية فى قبول الزوج عندما ينتشرون ولى الأمر فى ذلك ، وأن الحديث الذى وقع بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وزينب لم يتجاوز غير المشاورة • وليس هناك قضاء وحكم فى زواج زينب من زيد وإنما هو ايجاب وقبول ، وهذا ما يؤكد لدينا أن سبب نزول الآية ما جاء لهذا الشأن •

تفسير الآية ومكانتها من التنزيل •• كما أراه :
 « •• وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا •• » •

أقول : ان القرآن دستور الاسلام ، وآياته كلها عنوان حضارة خالدة تعرب عن قواعد العدل التى تعنى بروابط الانسانية ، فى الاخاء •• والمساواة والحرية ، فلقد شرع القرآن حقوق الفرد والأسرة فى علاقة الفرد بربه وبأخيه وأسرته ومجتمعهم ، وبأولى الأمر ، وعلاقة أولى الأمر بالمجتمع

ولابد لهذا الترابط من مادة أساسية ، تنص على وجوب تنفيذ قواعد هذا الدستور ، فنزلت هذه الآية التي هي أوسع من ذلك النطاق المتدع ، وأوضح من ذلك الغموض الذى لفه به الرواة ، وأهم من أن يكون نزولها لشخص معين ، انها عامة يدخل تحت مضمونها كل مؤمن ومؤمنة يطلب منهم أداء ما عليهم من الواجبات المفروضة فى الأحكام التى يقضى الله سبحانه بها يوحيه الى رسوله ويقضى بها الرسول بموجب الوحي .

تفسير الآية :

« وما كان » أى ما صح ولا استقام ، ولفظ ما كان وما ينبغى ونحوهما معناه الحض من الشيء أى : لا يحل شرعا أن يكون (المؤمن ولا مؤمنة أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

لقد جمع الضمير فى قوله (لهم .. ومن أمرهم) لأن مؤمن ومؤمنة وقعا فى عموم النفى ، فالحكم هنا يعم كل المؤمنين . ولذلك جاء الضمير بلفظ الجمع (الخيرة) مصدر بمعنى الاختيار « ومن يعص الله ورسوله » أى من يخالف أحكام الله ورسوله فى أى أمر من الأمور . « فقد ضلّ ضلالا مبينا » أى: حاد عن الصراط المستقيم وضاع ضياعا ظاهرا .

المعنى العام :

الآية قاعدة عامة قائمة بذاتها لا رابطة بينها وبين الآية
التي تليها الا من ناحية قربها منها ، ووجودها معها في سورة
الاحزاب التي جاءت بها أحكام أخرى .

ومعناها العام :

لا يستقيم للمؤمنين والمؤمنات الذين يؤمنون بكتاب
الله المنزل على رسوله ، الاختيار بين الطاعة والعصيان فيما
يقع عليهم من الأحكام التشريعية الصادرة عن الله وعن رسوله
بشأنهم ، وانما عليهم تنفيذ ذلك ، حفظا للنظام العام وسيرا
على طريق سوى ، لتكوين مجتمع أفضل ، وأى خروج على
أوامر الله يعد عصيانا وضياعا . . والله أعلم .



الفصل الثالث

عرض ودرس للروايات التي وردت حول تفسير آية

« واذا تقول للذي أنعم الله عليه ... » الآية

ولآراء المفسرين الذين اعتمدوا على هذه الروايات

روايات ابن جرير الطبري :

الرواية الأولى :

قال ابن جرير ، حدثت عن محمد بن عمر ، قال حدثني
عبد الله بن عامر الأسلمي ، عن محمد بن حبان ، قال : جاء
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت زيد بن حارثة ، وكان
زيد ، انما يقال له زيد بن محمد ، ربما فقد رسول الله الساعة ،
فيقول : « أين زيد ؟ » فجاء منزله يطلبه ، فلم يجده ، وقامت
اليه زينب بنت جحش زوجته فضلا ، (يقال امرة فضل أي
تلبس ثوبا واحدا) فأعرض عنها رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فقالت : ليس هو هنا يارسول الله ، فادخل بأبي
أنت وأمي ، فأبى رسول الله أن يدخل . وانما عجلت زينب أن
تلبس ، إذ قيل لها ، رسول الله على الباب ، فوثبت عجلة ،

فأعجب رسول الله ، فولى وهو يهمهم يئس لا يكد يفهم
 إلا أنه أعلن : سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب
 (تأمل !) • قال : فجاء زيد الى منزله فأخبرته امرأته أن
 رسول الله أتى منزله ، فقال زيد : ألا قلت له ادخل ، فقالت :
 قد عرضت عليه ذلك فأبى ، قال : سمعته يقول شيئا ؟ قالت :
 سمعته يقول حين ولى : سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف
 القلوب • فخرج زيد حتى أتى رسول الله ، فقال : يا رسول
 الله ، بلغنى أنك جئت منزلى • فهلا دخلت بأبى وأمى يا رسول
 الله ، لعل زينب أعجبتك فافارقتها ، فقال : (أمسك عليك
 زوجك) • ففارقتها زيد واعتزلها ، فحلت ، فبينما رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم يتحدث مع عائشة إذ أخذته غشية فسرى
 عنه وهو يبتسم ويقول : من يذهب الى زينب يبشرها ،
 ويقول : ان الله زوجنيها ، وتلا رسول الله : « **واذ تقول للذى
 انعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زوجك** » • الآية •

قالت عائشة : فأخذنى ما قرب وما بعد ، لما يبلغنا في
 جمالها وأخرى هى أعظم الأمور وأشرفها ما صنع الله لها ،
 زوجها • فقلت : تفخر علينا بهذا •

قالت عائشة : خرجت سلمى خادم رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم - تخبرها بذلك فأعطتها أوصاحا •

الرواية الثانية : من روايات الطبري ، قال :

حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوما يريد ٠ وعلى الباب ستر من شعر ، فرفعته الريح ، فانكشف وهي في حجرها حاسرة ، فوقع اعجابها في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما وقع ذلك كرهت الى الآخر ٠ قال : فجاء زيد ، فقال : يا رسول الله ، اني أريد أن أفارق صاحبتي ؟ ٠ فقال : مالك ؟ أراك منها شيء ؟ ٠ فقال : لا والله يا رسول الله ما رابني منها شيء ٠٠ ولا رأييت الا خيرا ، فقال رسول الله : « أمسك عليك زوجك واتق الله » فذلك قول الله عز وجل : « واذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه » ٠٠ قال الطبري : تخفى في نفسك ان فارقتها تزوجتها (١) .

الرواية الثالثة : برأى الطبرى وجماعة آخرين معه :

نقل صاحب فتح البيان فى مقاصد القرآن عن القرطبى . .

قال :

وقد اختلف فى تأويل هذه الآية ، فذهب قتادة و ابن زيد ، وجماعة من المفسرين ، ومنهم ابن جرير الطبرى وغيره الى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهى فى عصمة زيد ، وكان حريصا على أن يطلقها فبنتزوجه هو ، ثم أن زيدا لما أخبره يريد فراقها ، وشكا منها غظة القول وعصيان الأمر والأذى باللسان والتعظم بالشرف ، قال له : اتق الله فيما تقوله عنها ، وأمسك عليك زوجك زينب (وهو يخفى الحرص على طلاق زيد اياها ، وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ولكنه فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف) .

أمعن النظر فى هذه الروايات تجد خيالا غريبا فقد تخيل واضع الرواية الاولى أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - افتقد زيدا ، فذهب الى داره ، وأن زينب خرجت اليه بثوب واحد وأنها أخبرت قبل خروجها أن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الباب ، ومعنى ذلك أنه كان فى الدار معها من أخبرها ، فلما رأت النبى ، عرضت عليه الدخول فأبى . وولى يهيمهم بكلام لا يفهم ، ثم بكلام معلن ، وفى الرواية الأخرى تخيل الراوى ،

ريحا رفعت ستارة الشعر المسدولة على باب الدار فبانّت زينب حاسرة في حجرتها ، فأعجب بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعد هذا الاعجاب ، أدخل الله كره زينب في قلب زيد ، وفي كلتا الروايتين يقول الراوي ، ذهب زيد يشكوها ويريد طلاقها ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - حاوره في أمرها مستفسرا عما يساوره من انشك فيها فنفي زيد كل شر عنها ، وقال : ما رأيت منها الا كل خير . وفي الرواية الثالثة ، يؤكد ابن جرير وقوع الاستحسان في قلب النبي لزينب ، وحرصه على أن يطلقها زيد ليتزوجها هو وأن زيدا شكا منها غلظة القول والتعظم بالشرف . فقال له النبي «أمسك عليك زوجك واتق الله» ويضيف ابن جرير : أن النبي كان يخفي الحرص على طلاق زيد إياها ، وهذا الذي كان يخفي في نفسه ، ولكنه فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف .

ارجع الى الآية « واذ نقول للذي أنعم الله عليه » . .
الخ . ثم أعد النظر كرتين أو ثلاثا في الروايات كلها ، تجد أنها لا تتقف أمام المنطق وأنها هزل لا جد فيها ، وأنه الجهل الذي قصر بالمفسرين عن فهم الآية وأهدافها حملهم على تقبل هذه الروايات المتناقضة ، والظروف المتباينة وابتدعوا وتكلفوا ودسوا بأن هناك ريبية ونفى لها من جانب زيد ، وشكوى

بالأذى ، والتعظم بالشرف عليه من جانب زينب ، ومن ثم
 القاء الكره في قلبه والمحبة والاستحسان في قلب النبي من
 جانب الله عز وجل ، وفي هذا التكلف أطلق ابن جرير رأيه ،
 وفقا لرواياته في متعلق الاخفاء والخشية الذي سنضعه في
 مكانه فيما يأتى ، والذي حاد به ابن جرير عن جادة الصواب ،
 وترك المفسرين يذهبون في تفسير الآية كل مذهب .



ولتوضيح ذلك كله ، أجدنى مضطرا الى عرض ما جاء
 فى آراء المفسرين لأرد الخطأ الى الصواب ومن أهمها ما جاء به
 الزمخشري فى كتابه « الكشاف فى حقائق التنزيل وعلوم
 التأويل فى وجوه التأويل » .

الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ :

وضع الزمخشري تفسيره بعد ما يقرب من مائتى سنة
 من وفاة الطبرى ، واعتمد فى جل ما جاء به على روايات
 ابن جرير وتأويله .

والكشاف من الكتب التى يعنى صاحبها بالأنحو والبلاغة

وَأَسْتَخْرِاجَ الْعَاقِبَى عَلَى أَسَاسِ الْأَعْرَافِ لَا عَلَى أَسَاسِ الْإِفْهَومِ
الذَّهْنِي ، قَالَ قِيَمًا جَاءَ بِشَأْنِ زَيْد :

« أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » بِالْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ أَجَلُ النِّعَمِ ،
وَبِتَوْفِيقِكَ لِعَتَقِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَاخْتِصَاصِهِ ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بِمَا وَفَّقَكَ
إِلَّاهُ فِيهَا فِيهِ ، فَهُوَ مُتَقَلِّبٌ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ »
يَعْنِي زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْصَرَهَا بَعْدَ أَنْ كَخَّهَا إِيَّاهُ فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ ،
فَقَالَ : سَبَّحَانَ اللَّهِ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ نَفْسَهُ كَانَتْ تَجْفُو
عَنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا تَرِيدُهَا ، وَلَوْ أَرَادَتْهَا لَأَخْتَطَبَهَا ، وَسَمِعَتْ
زَيْنَبَ التَّسْبِيحَةَ ، فَذَكَرَتْهَا لَزَيْدٍ فَفُطِنَ ، وَأَلْقَى اللَّهُ فِي نَفْسِهِ
كَرَاهَةً صَحَبَتَهَا وَالرَّغْبَةَ عَنْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ زَيْدٌ لِرَسُولِ
اللَّهِ : أَنِي أُرِيدُ أَنْ أَفَارِقَ صَاحِبَتِي ، فَقَالَ : مَا لَكَ ؟ أَرَأَيْكَ مِنْهَا
شَيْءٌ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْهَا إِلَّا خَيْرًا ، وَلَكِنْهَا تَتَعَظَّمُ عَلَيَّ
لِشَرِّفِهَا وَتُؤْذِنِي ، فَقَالَ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ »
ثُمَّ طَلَقَهَا ، فَلَمَّا اعْتَدْتُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : مَا أَجَدُّ أَحَدًا أَوْثَقَ
فِي نَفْسِي مِنْكَ ، أَخْطَبَ عَلَيَّ زَيْنَبُ ، قَالَ زَيْدٌ : فَمَا نَطَلَقْتُ فَإِذَا
هِيَ تَخْمَرُ عَجِينَهَا ، فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ
أَنْ أَنْظِرَ إِلَيْهَا حِينَ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرَهَا فَوَلِيَّتُهَا ظَهَرِي ،
وَقُلْتُ : يَا زَيْنَبُ : أَيْ أَبْشِرِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَخْطُبُكَ : فَفَرَّحْتُ

وقالت : ما أنا صانعة شيئا حتى أوامر ربى ، فقامت الى
 مسجدها ، ونزل القرآن « زوجناكها » • فتزوجها رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم - ودخل بها ، وما أولم على امرأة من
 نسائه ما أولم عليها فذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم ،
 حتى امتد النهار فان (قلت) ما أراد بقوله « واثق الله » -
 (قلت) أراد : واثق الله فلا تطلقها ، وقصد بنهى تنزيهه لاحتريم
 لأن الأولى أن لا يطلق ، وقيل : واثق الله فلا تذهما ، بالنسبة
 الى الكبر ، وأذى الزوج فان (قلت) ما الذى أخفى فى نفسه
 (قالت) تعلق قلبه بها ، وقيل علمه بأن زيدا سيطلقها ،
 وسينكحها ، لأن الله قد أعلمه بذلك ، فان (قلت) ماذا أراد
 الله منه أن يقول ، حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، وكان
 من الهجة أن يقول له افعل ، فانى أريد نكاحها ، (قلت)
 كان الذى أراده الله منه أن يصمت عند ذلك ، أو يقول له أنت
 أعلم بشانك ، حتى لا يخالف سره فى ذلك علانيته لأن الله
 يريد من الأنبياء تساوى الظاهر والباطن ، والتصلب فى الأمور
 والتجارب فى الأحوال ، والاستمرار على طريقة مستتبّة ، فان
 (قلت) الواو فى وتخفى فى نفسك (قلت) الواو واو الحال ،
 أى تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفيا فى نفسك ارادة أن
 لا يمسكها ، وتخفى خاشيا قالة الناس ، وتخشى الناس

وَحَقِيقًا فِي ذَلِكَ أَنَّ تَخْشَى اللَّهَ ، أَوْ وَاوِ الْعُطْفَ ، كَانَهُ قِيلَ ،
وَأَنَّ تَجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِكَ أَمْسَكَ وَاخْفَاءَ خِلَافَهُ ، وَخَشْيَةِ النَّاسِ ،
وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، حَتَّى لَا تَفْعَلَ ذَلِكَ •

قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ « فَلَمَّا قَفِضَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » إِذَا بَلَغَ
الْبَالِغَ حَاجَتَهُ وَتَقَاصَرَتْ عَنْهَا هِمَّتُهُ ، وَطَالَبَتْ نَفْسَهُ عَنْهَا ،
وَطَلَقَهَا وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا « زَوْجِنَاكِهَا » • « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا »
جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً ، أَيْ : مَكُونًا لَا مَخَالَفَةَ ، وَهُوَ مِثْلُ مَا أَرَادَ
كَوْنَهُ مِنْ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنَبَ ، وَمَنْ نَفَى الْحَرَجَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ
مِنْ إِجْرَاءِ أَزْوَاجِ الْمُتَبَنِّينَ مَجْرَى أَزْوَاجِ الْبَنِينَ ، فِي تَحْرِيمِهِمْ
بَعْدَ انْقِطَاعِ عِلَاقَةِ الزَّوَاجِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ ، وَسَاقَ الزَّمْخَشَرِيُّ
الْحَدِيثَ الْآتِي :

« عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لَوْ كَتَمَ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا أَوْحَى إِلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ » ••
انْتَهَى مَا جَاءَ بِهِ الزَّمْخَشَرِيُّ •

وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أَعْلِقَ عَلَى تَفْسِيرِ الْعَلَامَةِ الزَّمْخَشَرِيِّ تَعْلِيلًا
مَوْجِزًا مُحْتَفَظًا بِالتَّعْلِيلِ الشَّامِلِ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَتَفْسِيرِ غَيْرِهِ مِنْ
إِجْلَةِ الْمَفْسَرِينَ فِي الْفُصُولِ الْآتِيَةِ وَأَقُولُ :

لقد اعتمد الزمخشري على روايات الطبري الاخبارية التي
تحتمل الصدق والكذب وهي في خيالها المبعثر تميل الى الكذب،
فتكلف العلامة وابتدع وزاد من عنده ولم ينقص منها شيئاً ،
وهو شأن المتأخرين الذين خشى منهم عثمان - رضى الله عنه -
على القرآن ، بأن يقعوا في محيط الاستعجام وانبهام أساليب
اللغة فيتكلفون ويبتدعون ، وبين وفاة الزمخشري وبيان الخليفة
الذى مر بنا نحو من خمسمائة سنة ، أفلا يكون قد وقع في هذه
الدائرة عندما اعتمد على روايات الطبري، وحمل الآية مالا تحتمل،
 والمعروف عنه أنه يركن في تفسيره الى قواعد النحو ، وأساليب
البلاغة ، وهو شأن أولئك الذين تعوزهم السليقة العربية ،
ومع اعتماده على النحو فقد يقع في الخطأ من حيث تخونه
المعرفة بلطافة الأسلوب ، فيسلك في توضيحه دروبا شائكة ،
لقد جانببت الصحة مفسرنا عندما وضع (الواو) في قوله
(وتخفى) للحال أو للعطف ولم يوجهها التوجيه الصحيح ،
فان كانت للحال فان زيدا هو متعلق الحال ، وان كانت للعطف،
فتكون من باب عطف الجملة على الجملة ففي قوله تعالى [وتخفى،
وتخشى] معطوفتان على جملة « واتق الله » ومثلما جانبته
الصحة في شأن الواو جانبته المعرفة بأسلوب اللغة ، فان
الأسلوب العربى يقتضى استمرار مقول القول من أول قوله

تعالى : « أمسك .. » الى آخر « والله احق أن تخشاه » ،
ثم يلي ذلك « فلما قضى زيد » .. الخ ومن هنا وقع الزمخشري
في أخطاء كثيرة تسربت اليه من الرواية المفتعلة وحمل الآية
مالا تحتتمل، من ذلك قوله : ان الله أودع الكره في قلب زيد لزينب
تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، واتهم النبي - صلى الله
عليه وسلم - بأنه أخفى ما عمله الله به ، واتهم زيدا بوسوسة
الشك في نفسه من زينب بدليل استفسار النبي منه عن ذلك
وابتدع طلبا موجهها من النبي الى زيد ليخطب عليه زينب وهي
ابنة عمته مع أن الزواج تم بوحي الهى ، ولى عودة الى
الموضوع

رأى أبى محمد الحسين البغوى المتوفى سنة ٥١٠ هـ :
ومن تأريخ وفاته رحمه الله دلالة معاصرته للعلامة
الزمخشري ، فقد ذكر البغوى في تفسيره (معالم التنزيل)
أن الله أعلم النبي أنها ستكون زوجته ، وانما أخفى ذلك
استحياء أن يخبر زيدا أن التى تحتك وفي نكاحك ستكون
زوجتى وهو الاولى من الآراء . وأن رأى أنه أخفى محبتها
أو نكاحها لو طلقها ، لا يقدح في حال الأنبياء ، لان العبد
غيب ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الاشياء ، ما لم

يَقْصِدُ فِيهِ الْمَأْتَمُ لِأَنَّ الْوَدَّ ، وَمِيلَ النَّفْسِ مِنْ طَبْعِ الْبَشَرَةِ ،
وَهُوَ رَأْيٌ ضَعِيفٌ ، لَا يَنْاسِبُ مَقَامَ النَّبُوَّةِ .

رَأَى أَبُو عَلِيٍّ الْفَضْلُ بْنُ الْحَسَنِ الطَّبْرَسِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ
الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٥٣٨ هـ :

أَنَّهُ مَعَاصِرٌ لِلْبَقَوَى وَالزَّمَخْشَرِيِّ (رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا)
عَالَ فِي كِتَابِهِ « لِبَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ » عِنْدَ قَوْلِهِ :
« وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ » الَّذِي أَخْفَاهُ فِي نَفْسِهِ هُوَ : أَنْ طَلَّقَهَا زَيْدٌ
تَزَوَّجَهَا ، وَخَشِيَ لَائِمَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا ، أَمْرُهُ بِطُلُقِهَا ثُمَّ
تَزَوَّجَهَا ، وَقِيلَ أَنَّ الَّذِي أَخْفَاهُ فِي نَفْسِهِ هُوَ : أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمَهُ
أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ وَأَنَّ زَيْدًا سَيُطْلَقُهَا ، فَلَمَّا جَاءَ زَيْدٌ
وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ أَنْ أَطْلُقَ زَيْنَبَ ، قَالَ : امْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ،
فَقَالَ سُبْحَانَهُ : لَمْ تَلْتِ امْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَقَدْ أَعْلَمْتُكَ أَنَّهَا
سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِكَ (رَوَى ذَلِكَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ الطَّبْرَسِيُّ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ ، وَهُوَ الَّذِي عَوَّتَبَ
عَلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ الَّذِي أَظْهَرَ مُحِبَّتَهَا أَوْ إِرَادَةَ طُلُقِهَا لِأَظْهَرِهِ
اللَّهُ تَعَالَى مَعَ وَعْدِهِ أَنَّهُ يَبْدِيهِ .

أَقُولُ : وَهَذَا تَفْسِيرٌ لَا يَقْبَلُهُ الْمَنْطِقُ (تَأَمَّلْ مَكَانَةَ اللَّهِ

نسبحانه وتعالى ومكانة نبيه عليه السلام (: في هذا التأويل
الشخصي الذي من حق المنطق أن يرفضه :

رأى العلامة أبي الحسن المعروف بابن الأثير المتوفى
سنة ٦٣٠ هـ :

قال في الجزء الثاني من كتابه (الكامل) : تزوج رسول
الله زينب بنت جحش ابنة عمته ، وكان زوجها زيد بن حارثة ،
وكان يقال له زيد بن محمد ، فخرج رسول الله يريده ، وعلى
الباب ستر من شعر فرغته الريح ، وهى حاسرة فأعجبته
وكرهت الى زيد ، فلم يستطع أن يقربها ، فجاء الى النبي
فأخبره ، فقال : أراك فيها شيء ؟ ، فقال : لا والله ، فقال
رسول الله « أمسك عليك زوجك واتق الله » ففارقها زيد ،
وحلت ، وأنزل الوحي على النبي ، فقال من يبشر زينب أن
الله زوجنيها ، وقرأ عليهم قوله تعالى : « **واذ تقول للذي
أنعم الله عليه وأنعمت عليه** » الخ فكانت زينب تتفخر على
نساءه ، وتقول : زوجكن أهلوكن وزوجني الله في السماء .

تأمل (هذا السرد الذي لا يمت لآلية من قريب أو بعيد) :

راى العلامة علاء الدين الخازن المتوفى سنة ٧٤١ هـ :

قال الخازن فى (لباب التاويل فى معانى التنزيل) متفقاً مع البغوى فيما روى عن على بن الحسين : ان المراد بقوله تعالى : « وتخفى » أن الذى أخفاه علمه بأنّها ستكون زوجته ، وأنه عوتب على هذا الاخفاء ، وإنما أخفى ذلك استحياء أن يخير زيدا أن التى تحتك وفى نكاحك ستكون زوجتى (تأمل) .

راى أبى الفداء الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٤٤ هـ :

قال رحمه الله :

ذكر غير واحد من المفسرين والفقهاء ، وأهل التاريخ ، فى سبب تزويجه إياها عليه السلام حديثاً ذكره أحمد بن حنبل فى سنده ، وتركنا إيراد قصداً لئلا يضعه من لا يفهم على غير موضعه ، وقد قال الله فى كتابه ، « واذا نقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » . الآية والمراد بالذى أنعم الله عليه هاهنا ، زيد بن حارثة مولى رسول الله بالعق وزوجه بابنة عمته زينب ، قال على بن الحسين زين العابدين : والذى كان الله قد أعلم ، أنها ستكون من أزواجه ، فهو الذى كان فى نفسه عليه السلام ، قال ابن كثير وقد تكلم كثير من السلف هاهنا بآثار غريبة تركناها وقال : الله تعالى : « فلما قضى

زيد منها وطرا زوجهاها » ذلك أن زيدا طلقها ، فلما انقضت عدتها بعث اليها رسول الله من يخطبها الى نفسه ، ثم تزوجها وكان الذى زوجه منها رب العالمين ، تبارك وتعالى ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك : أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى فتقول : زوجكن أهليكن وزوجنى الله تعالى فوق سبع سموات : وزاد ابن كثير فقال : عن ثابت عن أنس ، قال : لما انقضت عدة زينب قال النبى لزيد : اذهب واذكرها على فانطلق حتى اناها ، وهى تخمر عجنتها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر اليها أن رسول الله ذكرها فوليتها ظهري . ونكصت على عقبى ، وقلت : يا زينب ابشرى ، أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي عز وجل ، ثم قامت الى مسجدنا ونزل القرآن (البداية والنهاية ج ٣) .

رأى العلامة الآلوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ . :

لقد استند الآلوسى رحمه الله فى تفسيره هذه الآية الى قواعد النحو أيضا فقال : المراد بالموصل « ما » فى قوله تعالى « ما الله مبدية » ما أوجاه الله تعالى اليه أن زينب سيطلقها

زيد ويتزوجها بعده عليه الصلاة والسلام ؕ واستتم في تفسيره مستندا الى رواية على بن الحسين التي اخذ بها اكثر المفسرين وهي : أن الله اعلم أن زيدا سيطلقها وأنها ستكرن من أزواجك ، ويقول الآلوسی : وهذا التفسير مطابق للتلوة ، لأن الله تعالى اعلم أنه مبدى ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ولم يظهر غير تزويجها منه ، فقال تعالى « زوجناكها » وهنا موطن الفخ الذى وقع فيه العلامة الآلوسی ، بعد ألف ومائتين وأربعين عاما من اذاعة بيان الخليفة عثمان ، مع أن الآلوسی من نيرى الفكر المعاصرين فيكيف فات عليه التدليس وكيف خفى عليه ما الله مبديه ، وكيف اتفق مع هذا السلف الصالح الذى استغفلهم الدس فحملوا الآية مالم تحتمل ، وكيف استطاع أن يحمل « ها » وهو اسم الموصول هذه المعانى البعيدة .



خلاصة :

في هذا العرض الشامل الذى مر بنا في ذكر روايات الطبرى التي ربكت العلماء فاندفعوا وراءها ، فمنهم من تخرج ، ووقف ينظر اليها نظر المستريب ، لأن الاثم يغمرها ،

ومنهـم من أراد أن يكتب ويفسر ، رغم غموض المعانى عليه ،
فأخذ يدور حول نفسه ليجد لكلامه مخرجا غير أخذ الروايات
على علانها ، واقتباس ما يحذر له منها مع اضافة شىء من عنده ،
ومنهـم من ركن الى قواعد النحو والاعراب يستنجد بها في
توضيح ما انبهـم عليه ، فوقع في هوة عميقة ، ولم يجد بدا
من الخروج منها الا أن يتكلف ويبتدع .

لقد أطلق الطبرى رأية الأول قبل ما يقرب من اثنى
عشر قرنا وقال : « كان النبى حريصا على أن يطلقها زيد
فيتزوجها هو ، أى كان يخفى الحرص على طلاق زيد اياها ،
وهذا الذى كان يخفى في نفسه ، ولكنه فعل ما يجب عليه
من الأمر بالمعروف . وفي رأى آخر له : (تخفى في نفسك :
ان فارقتها تتزوجها) ومن هذا المنطلق بدأ المفسرون يؤولون
ما يحلو لهم ، فقال البغوى : ان الله أعلم النبى أنها ستكون
زوجته ، وانما أخفى ذلك استحياء أن يخبر زيدا أن الذى
تحتك ستكون زوجتى وقال : ولا يقدر أنه أخفى محبتها ،
أو نكاحها لو طلقها .

وقال الزمخشري : أخفى في نفسه تعلق قلبه منها ،
وقيل أخفى علمه بأن زيدا سيطلقها وسيتركها لأن الله قد

أعلمه بذلك ، وقال أيضًا : ألقى الله في نفس زيد كراهة صحبتها ، وأن الله أراد من النبي أن يصمت ولا يتكلم ، عندما قال زيد أريد مفارقتها لكي يتم زيد أمر الطلاق حتى لا يخالف سر النبي علانيته •

وصفوة القول هنا رأيان :

اولهما : أن الله أعلمه أن زيدا سيطلقها وستكون زوجة له •

والثاني: أنه أخفى محبة زينب وارادة طلاقها • وقد أمره الله أن يصمت حتى يفرغ زيد من مفارقتها فعاتب الله نبيه على قوله « أمسك عليك زوجك واتق الله » •

قال العلامة ابن حجر ، انما وقع الخطب في تأويل متعلق الخشية •

وقال العلامة أبوبكر محمد بن العربي ، ان أخبار الأنبياء مروية ، وأحاديثهم منقولة ، بزيادات قولها أحد رجلين : اما غبي عن مقدارهم ••• واما بدعى لا رأى له ، في برهم ووقارهم فيحس تحت المقال الدواهي ، ولا يراعى الأدلة ولا النواهي • ثم قال : وهذه الروايات كلها ساقطة •

واقول : من أين ورد القول بأن الله أراد من نبيه أن يصمت ولا يتكلم عندما قال زيد أريد مفارقتها لكي يتم زيد أمر الطلاق حتى لا يخالف سر النبي علانيته ؟ أليس في هذا القول اتهام بأن النبي صلى الله عليه وسلم يظهر خلاف ما يبطن ؟ أليس في هذا جهل بمكانة النبي وبره وسمو الرسالة التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم من كان بين محمد ونفسه في إخفاء محبتها وإرادة طلاقها وأين هو الوحي الذي نزل بأن زيدا سيطلقها وستكون زوجة للنبي ، ليس ذلك كله واردا وإنما هو الخبط في متعلق الإخفاء والخوف الذي غمض على العلماء في سياق الآية فتكلفوا واستندوا الى روايات مدسوسة كما أوضحت ذلك بعرضها ودرسها وسنجد في تفسير الآية على وجهها الصحيح أهدافها الاجتماعية والتشريعية وقبل أن أبدأ التفسير أجدني مضطرا الى ذكر موجز عن البيئة الاجتماعية والسياسية التي كانت تحوط برسالة النبي صلى الله عليه وسلم . وبعد من هو « محمد » صلى الله عليه وسلم ؟



محمد في قريش في مستهل حياته :

بدأ نجم النبوة يتلألأ في جبين محمد ، ووجد القوم فيه قبل مبعثه صفة الرجولة ، وعلائم العبقريّة ، فكان لا يتصرف

الا تُصرف الشهم الأبى ، والحليم المتزن ، وكان يَخْرُجُ مع
القوم الى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، الى هذه الأسواق العامة
التي كان يقيمها العرب في الأشهر الحرم بجوار مكة ، وكانت
تعرض البضائع وتنشد الأسعار ، وكان كل شخص ، ينشر
رأيه ، ويبدى عقيدته ، وهو آمن مطمئن ، لأنه في الأشهر
الحرم ، وكان محمد يجد في هذه المعارض المزدخمة آفاقا واسعة
للتفكير في خلق الله وفي نفسه ، وقد أجمعت قريش على
تسميته بالصادق الأمين ، فأخذوا يحكمونه بما شجر
بينهم . هكذا كان محمد في مستهل حياته ، أما هو في القرن
العشرين في نظر المفكرين فهو في الذروة وعلى رأس مائة عبقرى
مختار من عباقرة العالم وخليفته الثانى عمر بن الخطاب الذى
تخرج في مدرسة النبوة على رأس الخمسين منهم .

وفي مستهل النبوة وعندما اصطفاه الله رسولا للعالمين
نزلت الآية الكريمة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز
عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١) .

هذا الرسول الرؤوف الرحيم الذى تعز عليه متاعب

(١) التوبة : ١٢٨

الْمُؤْمِنِينَ فَيُخْرِصُهُ عَلَى شُؤْنِهِمْ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، كَأَن يَتَّقَمَعَ
 بِشَخْصِيَّةٍ مُمْتَازَةٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ فَمَعَ أَنَّهُ الرَّسُولُ الْمُصْطَفَى كَانَ
 رَجُلَ دَوْلَةٍ ، وَمَكُونِ أُمَّةٍ ، وَنَاشِرِ عَقِيدَةٍ ، وَوَاضِعِ شَرِيعَةٍ
 سَمَآوِيَةٍ ، حَفِظَتْ حَقُوقَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ وَالْمَسَآوَةِ وَالْإِخَاءِ
 وَالْحُرِّيَّةِ ، وَانْعَدَامِ الطَّبَقَاتِ ، وَحُرَرِتِ الْأُمَّةُ مِنَ الْوُثْنِيَّةِ •
 وَأَنْبَتَتْ حَضَارَةٌ يَحْفَظُهَا الْأَمْنُ وَالطَّمَأْنِينَةُ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ
 وَالْثُمَرَاتِ وَحَالَتْ دُونَ اسْتِغْلَالِ الْفَرْدِ لِأَخِيهِ ، وَأُسِّسَتْ مَجْتَمَعًا
 شِعَارُهُ : الْكُلُّ لِلْفَرْدِ ، وَالْفَرْدُ لِلْكُلِّ • (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ
 يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) فَانْطَلَقَتْ طَاقَاتُ الْإِبْدَاعِ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 فِي مَجَالَاتِ : الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالْفَنِّ وَالصَّنَاعَاتِ وَطَفَقَتْ الْمَجْتَمَعَاتُ
 الْبَشَرِيَّةُ فِي كُلِّ وَحْدَةٍ مِنْ وَحْدَاتِهَا تَنْشُدُ مِثْلَ هَذِهِ الْكِرَامَةِ الَّتِي
 اسْتَهْلَتْ بِهَا الْإِسْلَامُ عَهْدَهُ ، وَكَانَتْ الشُّوْرَى أَعْبَزَ نِظَامِ الْحُكْمِ
 فِي هَذَا الْعَهْدِ « وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ » (١) فَكَانَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَجْلِسُ شُورَى وَكَانَ أَعْضَاءُ هَذَا الْمَجْلِسِ يَدْعُونَ
 النُّقَبَاءَ ، مِنْهُمْ : أَبُو بَكْرٌ ، وَعُمَرُ ، وَعَلِيٌّ ، وَحَمْزَةُ ، وَجَعْفَرٌ ،
 وَابْنُ مَسْعُودٍ ، وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ، وَأَبُو ذَرٍّ ، وَالْمُقَدِّدُ •
 وَكَانَ أَبُو بَكْرٌ يُسَمَّى وَزِيرَهُ وَهُوَ أَوَّلُ لُقْبٍ فِي الْإِسْلَامِ ظَهَرَ
 فِي نِظَامِ الْحُكْمِ ، وَكَانَ كَعْبُ بْنُ عَمْرِو صَاحِبُ الْمَغَانِمِ ، وَكَانَ

(١) آلِ عَمْرِانِ : ١٥٩

حذيفة بن اليمان : يَخْرُص النخيل • وكان العلاء بن عقبة :
يكتب بين الناس في دورهم ومياهم ، وكان للنبي ديوان
يشبه ديوان الخارجية ، وكان عبد الله بن الأرقم صاحب هذا
الديوان ، يتلقى رسائل الملوك ويجيب عنها وكان له ديوان
أشبه بديوان العدل ، ويقوم بالعمل في هذا الديوان المغيرة بن
شعبة والحسين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات وديوان
يشبه ديوان الاعلام ، وكان يقوم بذلك حسان بن ثابت
وعبد الله بن راحة وكعب بن مالك يستقبلون الوفود ويجيبونهم
عن التفاخر والتكاثر • وكان للنبي ديوان أشبه بديوان
الترجمة ، ويقوم بذلك زيد بن ثابت يترجم عن : الفارسية
والرومية ، والقبطية ، والحبشية ، والعبرية • وقد عين
الرسول الولاة ، وعين لهم الأجر ، وكان أجر والى مكة ثلاثين
درهما في الشهر ، وكان النبي يختار الولاة ويرسلهم إلى
أرجاء الجزيرة ، ولا يقع اختياره إلا على الرجل الأمين القوي
الذي يتحمل المسؤولية ، ويبقى في الأمور على وجهها الصحيح ،
ولا يخشى في الله لومة لائم •

أرسل معاذ بن جبل واليا على اليمن فقال له : « بيم
تقضى يامعاذ ان عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بما في كتاب
الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ ، قال : أقضى

بِمَا قَضَى بِهِ الرَّسُولُ ، قَالَ : « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قِيَمًا قَضَى بِهِ
الرَّسُولُ » قال : أجتهد رأي ولا آلو . قال معاذ : فضرب
صدرى وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى
الله ورسوله » .

وجاء أبوذر يبغي وظيفة يقوم بها ، فقال : يارسول
الله .. ألا تستعملنى ؟ . فضرب يده على منكبه ، ثم قال :
« يا أبا ذر ، انك ضعيف وانها أمانة ، ويوم القيامة خزي
وندامة ، الا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه » ..

علاج الاستقرار فى الأسرة اذا وقع خلاف بين الزوجين :
ومن أسس تنظيم المجتمع الاسلامى الذى نزل به
الوحى الالهى ، ما جاء فى شأن الزوجين اذا وقع الخلاف
بينهما ، أن يذهب حكم من أهله وحكم من أهلها ، لاصلاح
ذات البين ، « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من
أهله وحكما من أهلها ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ،
ان الله كان عليما خبيرا » (١) فان تم اصلاح انتهى الأمر

(١) النساء : ٣٥ :

عند هذا الحد ، وعادت الحياة الى طبيعتها الاولى وآن لم يتم جنح الفريقان الى الطلاق ، وقد عالج القرآن هذه الحالة علاجاً انسانياً سامياً ولم يترك المرأة ريشة في مهب الريح ، ولم يقييد الرجل في حياة مغمورة بالآلم واليأس ، فالطلاق في شريعة القرآن ، مرتان : امساك بمعروف ، أو تسريح باحسان ، وفي هاتين المرتين يحق للرجل أن يعود الى أسرته اذا عضت أسنانه اصبح الندم . وقد اعطاء التشريع فترة كافية للتفكير بالأمر ، فاذا وجد الالتقاء صعباً أوقع الطلاق مرة ثالثة وعند هذا الحد يفتى كل شيء ولن ينفع الندم حيث سدت الشريعة في وجهه كل أمل ، الا الأمل الأخير ، وذلك اذا تزوجت المرأة ومات عنها زوجها الثاني ، أو حدث اختلاف بينهما فتفرقا ، وفق الأصول المرعية في القرآن ورغب المطلقان الأولان أن يعودا الى سالف حياتهما ، وبلغ بهما الندم مبلغه ، عند ذلك يمكن العودة بعقد جديد ، حيث جرب كل منهما مصاعب الحياة الثابتة ، واخذ درساً وعبرة من حوادث الأيام .

بمثل هذه القواعد الأساسية في الشريعة التي نبعث من الوحي الالهى كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يعالج أمور المجتمع الاسلامى الجديد . وكان الصحابة يحيطون به ، يتسمعون كلامه ، يحفظونه ويتتبعون حركاته لتكون لهم فيه

أسوة • والمدينة مع كونها مركز المجتمع الاسلامى فى عهد النبوة ومهبط الوحى التشريعى بعد مكة ، كانت أضيق من كفة الحابل من يقف فى أحد جوانبها يبصر الجانب الآخر بالعين المجردة • وفى كل وقت كان بوسع النبى أن يبعث أحد الصحابة الى زيد ليحضره عندما بلغ الشقاق بين زيد وزوجه مبلغه ، فقد كان زيد مولاه ، وكانت زينب ابنة عمته ، تزوجا برضاء من النبى واستمرت حياتهما الزوجية ثلاث عشرة سنة لم ينجبا مولودا ، وكان الاسلام فى عنفوانه وفى مشرق دعوته والتقاليد الطبقية العربية لا تزال حية ، والفارق بين عقيلة من عقائل قريش ، وبين مولى معتق كان كبيرا ، ولم يكن هناك طفل يلطف جو الأسرة ويربط بين المرء وزوجه فبلغ الشقاق مبلغه ، ويظهر ، أنه لم يفد الوفاق وكان زيد يكتم كل ذلك ، حتى بلغ السبيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، كما تقول العرب ، فأظهر الله هذا الخلاف بكثرة شكاوى زيد رغم كتمانته ، وفى احدى شكاواه قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - أمسك عليك زوجك واتق الله فان الله قد أظهر ما تخفيه فى نفسك من اصرارك على فراقها ولكنك تخشى قالة الناس ، والله أحق أن تخشاه •

وفى اصرار زيد على انهاء الرابطة الزوجية تم الطلاق

وبقيت هذه المرأة الفاضلة مهیضة الجناح لا عائل لها ، فأضيفت الى بيت النبوة مع أزواجه - صلى الله عليه وسلم - بأمر من الله ولغاية تشريع جديد وتقرير ابطال تقاليد جاهلية في كون الولد المتبنى له منزلة الولد من النسب .

وبعد هذا العرض الموجز أسأل القارئ : أترى أن هؤلاء المفسرين الأجلاء حين أقدموا على هذه المجازفة الخطيرة وتسابقوا فيما بينهم ، يأخذ بعضهم عن بعض في زيادة ونقص ، أتراهم ، فتشوا عن تهافت الروايات ، ودققوا في تناقض معانيها ؟ هل رجعوا الى معرفة مكانة محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث يحيط به صحابته ، ومجلس شوره ، لانجاز أعمال جبارة في تثبيت العقيدة والدفاع عنها ، ألا يعلمون أن حركات النبی وسكناته مسجلة عليه من أصحابه ، والله من ورائهم محيط يعينه بالوحى المنزل كلما استند بهم الأمر أو وقعت مشكلة من مشاكل المجتمع .

أجدنى الآن في حل مما عرضته من التفاسير لأعود وأفسر الآية التفسير الصحيح بما يتفق مع الأهداف الاسلامية ونصوص القرآن الكريم ..

والله ولى التوفيق .

الفصل الثالث

تفسير الآية

« ... واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » (١) ٥٥

المفردات :

« واذ نقول » الخطاب موجه الى النبي - صلى الله عليه وسلم - أى اذ تقول يا محمد « للذى أنعم الله عليه » أى أعطاه نعمة الاسلام « وأنعمت عليه » أى منحته الحرية بعثته من الرق « أمسك عليك زوجك » أى : احتفظ بزواجك « واتق الله » أى : خف الله ، والأمران يدلان على أن شقائنا حدث بين الزوجين وفي الأمر « أمسك » دليل على حرص

النبى - صلى الله عليه وسلم - على بقاء زَيْنَب بعصمة زيد
 وفى الامر « **واتق الله** » تذكر لزيد بنعمة الاسلام ، تلك النعمة
 التى من أجل فضائلها الاعتصام بالرابطة الزوجية ، الذى جاء
 فى قوله تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا
 لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » ان فى ذلك لآيات
 لقوم **يبتكرون** » (١) ٠٠

والمعنى : خف الله فى حق رابطة زوجية استمرت ثلاث
 عشرة سنة « **وتخفى فى نفسك** » الكلام لايزال موجها الى زيد ،
 أى وتضمّر فى نفسك « **ما الله بمبدية** » مظهره « **وتخشى**
الناس » تخاف قاله الناس ، الواو فى « **وتخفى** » « **وتخشى** »
 للحال ، ومتعلق الاخفاء والخوف زيد ، أو للعطف ، فتكون
 العبارة من باب عطف الجملة على الجملة ، فيكون المعنى :
 أمسك عليك زوجك واتق الله الذى أظهر ما تخفيه فى نفسك
 من اصرارك على فراقها وما تبديه فى شكواك المتكررة ولكنك
 تخشى قاله الناس حول هذا الاصرار والله أحق أن تخشاه
 هذا اذا اعتبرنا الواو للحال ، واذا اعتبرنا الواو للعطف ،
 فتكون جملتا (**وتخفى وتخشى**) معطوفتان على الجملتين فى

(١) الروم : ٢١

قوله تعالى : (أمسك ، وانتق) ، وهو ما يتطلبه سياق التلاوة .
لأن الآية نزلت بحق زيد ، والأسلوب البلاغى يقتضى استمرار
مقول القول حتى النهاية التى يكتمل بها المعنى ، أى لا يقف
عند قوله تعالى وانتق الله والا يكون مثلنا مثل ذلك الملاحد الذى
يقرأ من القرآن الكريم « فويل للمصلين » (١) ثم يسكت ،
ولا يكمل الآية بقوله تعالى « الذين هم عن صلاتهم
ساهون » (٢) . وبعبارة أوضح : احتفظ يا زيد بزواجك وانتق
الله فى أمرها ولا تفضى أسرار الزوجية بينكما فى الاكثار من
شيكواك التى أظهر الله بعضها على لسانك ، وخف الله من
اصرارك على فراقها ، ولا تخشى قالة الناس فى عدم قدرتك
على أن تكون سيد بيتك وأن زوجك تؤذيك بترفعها عليك ،
فان الله الذى أنعم عليك نعمة الاسلام ، وجعل بينك وبين
زوجك مودة ورحمة أولى بأن ترى شريعته وأحق بالخشية
من الناس .

(الوطر) قال أبو عبيدة الوطر : الأرب والحاجة .
وقال المبرد : الوطر المحبة والشهوة ، وجاء فى (موجز البيان
فى معانى القرآن) فى تفسير قوله تعالى « فلما قضى زيد منها

(١) الماعون : ٤ (٢) الماعون : ٥ :

وطرا « أى حاجة ، بحيث ملها ، وأصبح لا يريدما لتعاليتها عليه ، وفي أصول اللغة : قضاء الوطر : باوغ منتهى ما فى النفس من الشيء يقال : قضى وطرا منه اذا بلغ ما أراد من حاجته **« زوجهاها »** وقرئ (زوجهاها) ، وقد حمل المفسرون هذه الجملة تبعا لأقوال الرواة ما لا تحتمله من المعانى المتضاربة ، وكل ما فى الأمر أن هذه الجملة تم بها زواج النبی - صلى الله عليه وسلم - بوحي سماوى معال بقوله **« لکی لا يكون على المؤمنین حرج »** لتأكيد التشريع الاسلامی واقاراره : بأن المولود المتبنى غير المولود من النسب وهى قاعدة عامة لكل المؤمنین .

« حرج » ضيق ومشقة ، اثم ، **« أدعيائهم »** الادعاء جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة .

والمعنى : ان نساء الادعاء حلال على الذين يتبنوهم ، فليس الولد المتبنى مثل الولد الصلبى ، لأن الولد من النسب تحرم امرأته على أبيه كما لا يحرم على المتبنى أن يتزوج ابنة متبنيه أو أخته ومثلما يحل له هذا لا يجوز له أن يشترك بالارث مع ولد النسب .

« سنة الله » (١) أى شريعته التى تتبع فى هذه الوجهة الاجتماعية مرت بها الأمم السالفة من قبل ، وفى تفسير كلمة سنة الله أورد بعض المفسرين روايات اسرائيلية تافهة ، ضربنا صفحا عن ذكرها .

خاتمة .٠٠ وعود على بدء :

لم يكن سبب نزول الآية الكريمة « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » . الآية من أجل احتجاج أم سلمة وأم عمار وغيرهما من النساء على اقتصار القرآن على ذكر المؤمنين ولم يذكر المؤمنات ، وقد أوضحت بطلان ذلك ، بما جاء فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، بذكر المؤمنات ، ولم يكن سبب النزول من أجل أم كلثوم وزينب لتهافت الرواية ، وإنما الأساس الأول فى سبب نزولها ، أنها قاعدة تنفيذية عامة ، جاء بها القرآن الكريم لتنفيذ جميع الأحكام المنزلة ، وعلى تنفيذ ما يقضى به الرسول وفقا للوحي المنزل عليه ، فهى أوسع نطاقا مما ضيقه الرواة ومن الواضح أن ما جاء فى تلك الروايات المتهافنة

(١) الأحزاب : ٣٨

التي صيغت لتفسير هذه الآية أمور خاصة داخلية تحت هذا العموم ، فأتخذت وسيلة لخيال ما أنزل الله به من سلطان .

وأما آية « **واذ تقول للذي أنعم الله عليه** » . الخ الآية فهي آية تشريعية نظر فيها الى أهداف اجتماعية سامية ، منها اصلاح ذات البين بين الزوجين اذا وقع بينهما شقاق يؤدي الى هدم الأسرة ، وأن يكون هذا الاصلاح عن سبيل حكم من أهل الزوجة ، وحكم من أهل الزوج وظاهر الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أهل للثنتين ، فان زيدا مولاه ، وان زينب ابنة عمته ، وهو الذي زوجها ، وهو ولي أمرهما ، فلما اشتد الشقاق بينهما ، بحيث أصبحت الزوجية لا تطاق بعد زواج استمر ثلاث عشرة سنة لم ينجبا أثناءها مولودا أوضحت الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي تولى اصلاح ذات البين . فأحضر زيدا وأمره أن يحتفظ بزوجه ولا يفرط فيها ، وأن يخاف الله بما يضره لشأنهما ولا يخشى قاله الناس في أمرهما من خلاف فان الله قد أنعم عليه بالاسلام ووضعه بمكانة الكفو لها « **أنما المؤمنون أخوة** » (١) . ومن المعاني السامية التي تدل عليها هذه الآية : القضاء على

(١) الحجرات : ١٠

النكرة الجاهلية بازالة الطبقيّة بحيث أصبح المؤمن المعتق كُفؤاً
للمؤمنة .

وقد أصّر زيد على فراقها رغم كل ذلك ، وتم الطلاق ،
بانتهاء الرابطة الزوجية وبعد أن تم الطلاق نظراً لاستحالة
استمرار العشرة الزوجية ، أصبحت هذه المرأة الفاضلة
مهيضة الجناح وهذفا لقالة الناس ، فنزل الوحي باضافتها
الى بيت النبوة ، فليس لها عائل غير النبي - صلى الله
عليه وسلم - وفي هذا هو معنى السمو في العدالة الاسلامية
حيث تم الزواج بإمر من الله عز وجل .



ومن الأغراض السامية في هذه الآية :

... ذلكم التشريع الاجتماعي العادل الذي حدد ما بين
الولد من المتبنى والولد من النسب . فان المتبنى لا يحرم
عليه ما يحرم على الولد الصلبي ، ولا يشاركه في الارث .
فالولد المتبنى الحق في الزواج من زوج متبنيه وللولد المتبنى
الحق في التزوج من زوجة المتبنى اذا وقع بينهما فراق بموت
أو طلاق .

ولم ينسب التشريع أن يرفع من مكانة الأديعاء ، قال

تعالى : « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آبائهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » (١)

وصفة القول ان أسلوب الآية البلاغى منصب على مخاطبة زيد من أول قوله تعالى : « أمسك عليك زوجك » الى آخر قوله : « والله أحق أن تخشاه » . ومن قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا » الى آخر قوله تعالى : « وكان أمر الله مفعولا » . خاص بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وفي كل ذلك تشريع عام للمؤمنين جميعا .

والله أعلم .

(١) الأحزاب : ٥

محتويات الكتاب

الصفحة

٣	• • • • • • • • • •	اهـاء
٧	• • • • • • • • • •	تمهيد
١٢	• • • • • • • • • •	من هو ابن جرير ؟
		من هو زيد بن حارثة ؟ •• ومن هي زينب بنت
١٤	• • • • • • • • • •	ججش ؟

الفصل الاول :

		عرض وتدقيق للروايات التي وردت في أسباب
١٧	• •	نزل آية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة »
١٧		الرواية الأولى - الرواية الثانية - الرواية الثالثة
١٨	• • •	الرواية الرابعة - الرواية الخامسة
١٩	• •	الرواية السادسة - الرواية السابعة
		التحقيق في الروايات وتوجيه الآية وجهتها
٢٢	• • • • • • • • • •	الصحيحة

الصفحة

٢٥	•	تفسير الآية ومكانتها من التنزيل كما أراه
٢٦	• • • • •	تفسير الآية
٢٧	• • • • •	المعنى العام - ومعناها العام

الفصل الثاني :

عرض ودرس للروايات التي وردت حول تفسير آية :

٢٨	•	« واذا تقول للذي أنعم الله عليه ... »
٢٨	•	روايات ابن جرير الطبري - الرواية الأولى
٣٠	• • • • •	الرواية الثانية
٣١	• • • • •	الرواية الثالثة
٣٣	• • •	الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ
٣٨	• • •	رأى أبي محمد الحسين البغوي
٣٩	•	رأى أبي الفضل بن الحسن الطبرسي من علماء الشيعة
٤٠	•	رأى العلامة أبي الحسن المعروف بابن الأثير
٤١	• • •	رأى العلامة علاء الدين الخازن
٤١	• • • • •	رأى أبي الفداء الحافظ ابن كثير
٤٢	• • • • •	رأى العلامة الآلوسي
٤٣	• • • • •	خلاصة

الصفحة

محمد في قريش في مستهل حياته . . . ٤٦
علاج الاستقرار في الأسرة اذا وقع خلاف بين الزوجين ٥٠

الفصل الثالث :

تفسير الآية ٥٤
خاتمة ٥٨
من الأغراض السامية في هذه الآية . . . ٦٠
محتويات الكتاب ٦٤

رقم الايداع ٣٤٤٤ / ٩٨١
الترقيم الدولي ١ - ٢٦ - ٧٣٣٥ - ٩٧٧

المؤلف في سطور

✧ حصل على العالمية في الشريعة من كلية الامام الأعظم في بغداد سنة ١٩٢٧ — وأجازة التدريس من دار العلوم العليا في القاهرة سنة ١٩٣٤ .

✧ نال شهادة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي سنة ١٩٤١ .

✧ التحق بكلية الحقوق ، فنال شهادة الدكتوراه في القانون العام سنة ١٩٤٥ .

✧ عين مستشارا ثقافيا في القاهرة — ثم في لندن . . ثم مديرا عاما لمعارف العراق . وعميدا لكلية التجارة . وأستاذاً لكرسي القانون بجامعة بغداد . . ثم رئيسا لديوان رئاسة الجمهورية . . ثم مديرا لمكتب جامعة الدول العربية في لندن بدرجة سفير .

✧ له مؤلفات كثيرة ، منها « في مهبط الوحى » و « المساواة في الاسلام » و « العالم العربى » و « دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة » . . ومؤلفات أخرى كثيرة . ا